

الجواهري لواعج ومواجهات (1)

رواء الجصاني

حتمت ريادة الجواهري الثقافية والوطنية المتحدة والمتفردة، أن يواجهه، وعلى مدى عقود وعقود، تحديات عديدة ألزمته الردّ عليها، والتصدي لها، وبخالدات بث عبرها هموماً ومعاناة وثقتها الوقائع الخاصة والعامة، فجاءت - وبقيت - صدى معبراً عن أحاسيس الناس، ومكابداتهم على أصعدة شتى، وبمستوى واقعهم وأدوارهم في مختلف مناحي الحياة السياسية والاجتماعية وغيرها... وإذ جاءت بعض مواجهات الشاعر العظيم عنيفة ومباشرة أحياناً، فوراء ذلك نفس أبت إلا أن تنمرد على الخنوع والرتابة والمجاملة، ممتشقة سلاح الشعر والكلمة لتعري انتهاك المقاييس، وتجاوز المتداولين وتجار السياسة والكلمة... ذلك إضافة لما أراد به الرمز العراقي من دفاع عن فلسفة وإنهاض وتنوير وقيم، كانت ديدنه طوال عمره المديد الذي فاض بكل ما هو استثنائي... وفي هذه الكتابة، وما سيليه من حلقات، نحاول أن نلقي ضوءاً على بيت، "أو أبيات"، القصيد، في بعض ابداع الجواهري، ذي الصلة بما سبقت الإشارة إليه:

أزح عن صدرك الزبدا ...

تحت هذا العنوان نشر الجواهري عصماء جديدة عام 1976، وفيها ينتقد "عصره المليء بالزيف والخداع، وهو يسمو متعالياً بكبرياء الشاعر ... وهي ضرب من الطموح الى تجاوز النفس والآخرين، في محاولة اختراق للمستحيل..." بحسب ما جاء في تقديم القصيدة ذاتها، والتي تعبر من بيتها الأول عن مبادئ وثوابت نافذة في صورها وأغراضها، إذ تقول:

أزح عن صدرك الزبدا ، ودعه يبيث ما وجدنا ...
ولا تكبت فمن حقب ذممت الصبر والجلدا
أنت تخاف من أحد ، أنت مصانع أحدا
أتخشى الناس، أشجعهم يخافك مغضباً حردا
ولا يعلوك خيرهم ، ولست بخيرهم ابدا
ولكن كاشف نفساً ، تقم بنفسها الأودا

* ويتواصل القصيد نابضاً على مدى أكثر من مئة وأربعة عشر بيتاً، يحرض فيه الشاعر العظيم الذات، لتبارز، وتجاهه، وان لم يكن المتناولون يستحقون المنازلة أحياناً:

تركت وراءك الدنيا ، وزخرفها وما وعدنا
ورحت وانت ذو سعة ، تجيع الأهل والولدا...
أزح عن صدرك الزبدا ، وهلهل مشرقاً غردا
وخل "البوم" ناعبة ، تقيء الحقد والحسدا
مخنثة فان ولدت ، على "سقط" فلن تلدا...

* ثم يناجي الجواهري "خلاً" سعى ان يتساءل او يحاجج مدافعاً، أو مبرراً، فأوضح له الشاعر ما يستحق من توضيح، لكي يمهد الدرب، خائضاً المواجهة المنتظرة:

ألا انبيك عن نكدٍ ، تُهَوِّنُ عنده النكدا
بمجتمع تثير به ، ذئاب الغابة الأسداء...
خفافيش تبص دجىً ، وتشكو السحرة الرمدا
ويعمي الضوء مقتلها ، فتضرب حوله رسدا...

* ... وبعد ذلك التعميم في الأبيات السابقة، ينتقل القصيد، معتمراً الصراحة والوضوح، ليثي، وان بدون تسمية، الى "واحد" أو أكثر من الأدباء والمنتقنين الحاسدين، والمنافقين من ذوي الوجوه المتعددة، الذين جهدوا حينذاك لاستغلال الظروف، وتحت رايات "التحديث" الحقيقية أو المدعاة، لإيذاء الرمز الوطني المتألق ابداعاً ومواقف، فراح يمسك بتلابيبهم، ولا فكاك لهم من "قبضة" الشعر غضباً:

وصلفٍ مبرق ختلاً ، فان يرَ نُهْزَةَ رعدا
يزورك جنح داجية ، يُزير الشوق والكمدا
فان أدتك جانحة ، اعان عليك واطردا ..
وأخر يشتم الجمهور ، لفاً عليك واحتشدا...
يعدُّ الشعر أعذبه، اذا لم يجتذب احدا

* وقبيل ختامها، وحين تثور القصيدة، يحاور الجواهري نفسه، ويوجهها، مستذكراً بكل عنفوان، ومستنداً الى حقائق ووقائع ورؤى لا يجادل فيها سوى المعوزين جاهاً وارثاً:

أبا الوثبات ما تركت ، بجرد الخيل مطردا
يضج الرافدان ، بها، ويحكي "النيل" عن "بردى"
ويهتف مشرق الدنيا، بمغربها اذا قصدا:
ترفع فوق هامهم، وطر عن ارضهم سعدا
ودع فرسان "مطحنة" خواء تفرغ الصددا...

* واخيرا ، يعاتب الشاعر، اصدقاء ومحبين، وغيرهم، ممن يعتقد انهم معيون باتخاذ الموقف المناسب، المنسجم، ولكنهم سكتوا ولم يتنادوا إليه، خشية هنا، وخوفاً هناك، فيخاطبهم مشفقاً على حالتهم، ومعيباً عليهم المهادنة والمساومة... وربما محاولاً أن يجد لهم مبرراً يُسامحون عليه:

وغافين ابتنوا طنباً، ثنوا في ظله عمدا
رضوا بالعلم مرتفقاً ، وبالاداب متسدا...
يرون الحق مهتضماً، وقول الحق مضطهدا
وام "الضاد" قد هتكت، وربُّ "الضاد" مضطهدا
ولا يعنون - ما سلموا - بأية طعنة نفدا
بهم عوزٌ إلى مددٍ ، وانت تريدهم مددا...

نشرت على شبكة الانترنت، وفي
موقع عديدة، أواخر عام 2008